الإسلام والسيف !

للأستاذ محمد كامل حته

« مهداة إلى الأستاذ خليل جمعة الطوال »

إن من الجناية على الحق والافتراء على التاريخ أن يقول قائل إن الإسلام قد انتشر بالسيف ! أي سيف كان يحمله محمد ، وهو الأعزل الذي لا حول له ولا قوة ، الوحيد الذي لا ناصر له ولا معين ، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته إلى يثرب ؟ ...

لقد ظل محمد — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يكن له من سلاح غير ثقته بالله وإيمانه بأنه على حق ، ولقد لاقى هو وأصحابه في سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد مالا يثبت عليه إلا الذين عمرت قلوبهم بالإيمان ، واستيقنت أنفسهم من نصر الله !

كان الرسول يوماً يصلي في الكعبة ، وبينما هو ساجد إذا بعقبة بن أبي معيط ، يطأ عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان ...

وخنقه بردائه خنقاً شديداً ، والناس من حوله شامتون ، حتى أقبل أبو بكر مشتداً وخلص الرسول منه وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟

ولما خرج إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام ، أغروا به سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى تخضبت قدماه بالدماء !

ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه إليهم ليقتلوه تعاهدوا على مقاطعة أوليائه من بني هاشم ، ودامت هذه المقاطعة ثلاث سنين لقي فيها هذا البيت الكريم من المنت والإرهاق أعظم البلاء ...

وعذب عمار بن ياسر وأهله عذاباً شديداً ، فكان الرسول يمر بهم وهم في العذاب ويقول : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة !

ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحربة فقضى عليها فشكا عمار ذلك إلى الرسول قائلاً : يا رسول الله ، بلغ منا العذاب كل مبلغ ! فقال صلى الله عليه وسلم : « اصبر أبا اليقظان ، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار ! »

وقد استشهد أفراد هذه الأسرة الكريمة في سبيل الله ، ولم يبق منهم إلا عمار الذي كان يعذب حتى لا يبى ما يقول

وممن عذب في سبيل العقيدة بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية ابن خلف ، فلما اعتنق الإسلام حنق عليه سيده وأمره بالرجوع إلى عبادة الأصنام ، فلم ينصع لأمره لأنه ذاق حلاوة الإيمان ، فأنزل به ألواناً من العذاب : كان يطرحه على الرمضاء ، ويصهر على صدره دروع الحديد ، ويضع عليه الأحجار الثقيلة حتى قُدّ ظهره ! وهو يهتف دائماً : أحد ، أحد ، إلى أن أنقذه أبو بكر فاشتراه من سيده ، وأعتقه لوجه الله ...

وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد في مبدأ بعثته ، كانوا يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم ، حتى أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن يفر بدينه إلى الحبشة ، فهاجر إليها جم غفير . واستأذن أبو بكر في الهجرة إليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فلما كان على مسيرة يومين ، لقيه ابن الدغنة سيد قومه فسأله : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، قال : إن مثلك لا ينبغي أن يخرج أو يُخرج من أرضه ؛ ثم رجع به إلى قريش وأدخله في جواره ، على شرط أن يعبد الله فابتنى أبو بكر مسجداً بفناء منزله ، وصار يصلي فيه ويتلو كتاب الله ، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره ، يستمعون لتلاوته ، ويؤخذون ببلاغة القرآن وروعته ! ففزع القوم وشكوا أبا بكر إلى حليفه ، فأغلظ الحليف لأبي بكر في القول وقال له : إما ألا تستعلن بعبادتك ، وإما أن تعيد إليّ ذمتي . فقال أبو بكر : إني أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل

* * *

فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد ؟ أبالسيف وهو أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه ؟ ومتى كان السيف وسيلة لتكوين العقائد في النفوس ؟

ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة في سبيل دعوته ؟ أطمعاً في مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً ؟ ومتى

كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والأفهام ؟

كلا ؛ لا بهذا ولا بذاك ، وإنما بهذا الدين الحنيف الذى استحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب ، وبهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى حين سمعه وفد الحبشة من القسس والرهبان ، خشعت قلوبهم وفاضت أعينهم وأسلموا لله رب العالمين ، فنزل فيهم قوله تعالى : « ... ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »

ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن ، حتى إذا استفحل الخطب وعظم البلاء ، شرع الله لهم القتال دفاعاً عن النفس وذياً عن الدين ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » ، « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير »

كان موقف الاسلام إذن موقفاً سلبياً فى حروبه الأولى ، لا يقصد به غير الدفاع عن أهله ، ورد عدوان المتدين . فلما استقرت قواعده ، وانتهت إليه الخلافة فى الأرض ، كان عليه أن يقف موقفاً إيجابياً لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

وهذا يدل على أن الحرب فى الإسلام وسيلة لدرء المفاسد وإقرار السلام ، لا إرضاء لشهوة الفتح والاستعباد . وإذا كان الاسلام قد حث على الاستعداد الحربى بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فانما يرمى بذلك لإطفاء جذوة الحرب فى نفوس الأعداء ، وهو ما يعرف فى هذا العصر بالتسلح السلمى !

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته وإحسانه ، انظر إليه يأمر بالسلم إذا جنح إليها العدو ، ولو كان جنوحه خداعاً ومخاتلة : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ؛ وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »

وما تم فى معاهدة الحديبية ، يدل على مبلغ حرص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على السلم وكراهية الحرب ، فقد رضى أن توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين ، فى الوقت الذى كان المسلمون يتحرقون على القتال ، وينتظرون منه كلمة واحدة ، يندفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة ، حيث ينتصفون لأنفسهم وللإسلام من أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فكان الرسول حائلاً بينهم وبين ما يشتهون ، حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم ...

وكان الرسول يوصى أتباعه دائماً فى الحروب بقوله : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ؛ لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعته ، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء ! »

هذه مبادئ الإسلام فى الحرب ، وهى أرحم بالإنسانية وأشرف غاية من المبادئ السلمية — ولا أقول الحربية — التى تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية فى هذا العصر

وإليك هذا الموقف الرائع النبيل ، حين فتح الرسول مكة ، ومكنه الله من رقاب قريش ، وقد وقف على باب الكعبة والناس من حوله ينتظرون كلمة الفصل : فإما موت وإما حياة ! فقال لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! فكان ذلك سبباً فى إسلام قريش بأجمعها ، وحقن دمائهم ودماء المسلمين

فالقول إذن بأن الإسلام انتشر بالسيف فرية باطلة ، وإنما انتشر الإسلام بالحجة والبرهان ، وبسماحة مبادئه ومتانة أصوله . ولا عجب فهو الذى يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »

« حلوان الحمامات » محمد كامل حته